تجليات المقدس في رواية نزيف الحجر لإبراهيم الكوني

The Manifestations of the Sacred in the Novel of Bleeding Stone written by Ibrahim Al-Koni

رفيقة بوعصيدة*

جمال سعادنة♣

تاريخ الإرسال: 2022/12/30	تاريخ القبول: 2024/01/29	تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص:

تناولت هذه الدراسة موضوع المقدس في رواية نزيف الحجر لإبراهيم الكوني، حيث تم التطرق إلى مفهوم المقدس وأثره على مصير الإنسان من خلال فكرتي الطوطمية والخطيئة، تجسيد علاقة الإنسان بالحيوان وبالمكان المقدس وكيفية صناعة قداسة المكان -الصحراء-الذي حمل عدة رموز ودلالات ذات أبعاد فكرية إنسانية وفلسفية ووجودية كبرى.

الكلمات المفتاحية: إبراهيم الكوني، نزيف الحجر، الطوطم، المقدس، الخطيئة.

Abstract:

This study investigates the theme of the sacred in the novel Bleeding Stone written by Ibrahim Al-Koni, the concept of the sacred and its impact on human destiny were addressed through the ideas of totemism and sin, embodying the human relationship with the animals and the sacred place and how to create the sanctity of the place - the desert - thatcontains several symbols and connotations of major human intellectual and existential philosophical dimensions.

***Key words**:Ibrahim Al-Koni, Bleeding Stone, Totem, the Sacred, Sin.*

*جامعة باتنة 1، مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة، rafika.bouacida@univ-batna.dz

♣جامعة باتنة 1، saadna.djamel@gmail.com

المؤلف المرسل: رفيقة بوعصيدة، rafika.bouacida@univ-batna.dz

*** *** ***

مقدمة:

نشأ الإنسان وعاش في هذا الكون وهو يجهل مكنوناته وأسراره المتعددة التي تعجب واستغرب منها، لكنه حاول اكتشاف هذه العوالم وفهم أغلب الظواهر عن طريق التأمل والتدبر في شؤون الخلق والمخلوقات، فبدأ يتأقلم مع الطبيعة ويقيم علاقات مع أخيه الإنسان و رفيق آخر هو الحيوان، وتراوحت هذه العلاقة بين اتصال وانفصال فيلاحظ أن الإنسان هو نقطة التحول ومدار النقاش إذ بيده صناعة نفسه وتوجيهها، إما أن ترتقي ويكون مثاليا أو أن يتبع شهواته وأنانيته فيهبط إلى أسفل السافلين ليتجرد بذلك من إنسانيته ويرتكب خطيئة تشهد له بدونيته ونقصانه وضعفه.

من جهة أخرى، يمتلك الإنسان القدرة على التفسير والتحليل والاستنباط لأنه صاحب العقل ليكتشف أن هذا الكون الذي يحمل هالة من القداسة أو تجلت فيه قوى متعددة لم يوجد عبثا وإنما هناك من خلقه وأبدعه قوة أكبر من الجميع هي صنع القدوس العظيم الله ذو القوة العزيز.

أثار الكوني في رواية نزيف الحجر قضايا فلسفية وجودية وميثولوجية، من خلال قضية المقدس التي يتلاعب بها الإنسان فيقدس ما يشاء ويدنس ما يريد، حيث نجد الكوني يتناص مع القرآن في قصص ذات حكم وعبر كتوظيف الخطيئة واستخدامها بما يتناسب والنص المتخيل ليقدّس أفكار وأماكن وكائنات في مقابل تدنيس أشياء أخرى حسب رؤيته الخاصة، وهذا المزج بين الواقع والمتخيل والفلسفة والدين واعتماده على مرجعيات: ثقافية وفكرية ودينية وتاريخية، يدفعنا للتساؤل عن طريقة تفكير الروائي وعن أهم تجليات هذا المقدس في هذه الرواية؟ وما الذي يصنع قداسة الأشياء؟ وكيف يتم التعامل مع المقدسات؟

أولا / ملخص الرواية:

تدور أحداث الرواية حول قصة أسوف ووالده اللذان فضلا العيش منعزلين في الصحراء وفضلا مجاورة الجن على مجاورة الإنس، فجدهم الأول كان جنيا، علم الوالد ابنه كل شيء يؤهله للعيش في الصحراء إلا كيفية اصطياد الودان لأنه طوطمه وقد قطع عهدا على أن لا يقتله، فورثه أسوف عن والده وتشاركا ظاهرة الحلول ليصبح كل منهما ودان مقدس، وأصبح أسوف يعاف اللحم ويحرم عليه أكله بالرغم من العهد الذي قطعه الوالد إلا أن الجوع دفع بيه إلى أن يبحث عن الودان لاصطياده فيموت معاقبة على مخالفته للنذر، ثم يتولى أسوف حماية الودان لكن سرعان ما ظهر قابيل، آكل لحم البشر ليغير مجرى الأحداث والذي يقضي على اسوف والودان المقدس في الآن نفسه وتنتهي الرواية بسيلان الدم على اللوح الحجري.

ثانيا/ في مفهوم المقدس:

يعد مصطلح المقدس من المصطلحات الأكثر تداولا في الدراسات الأدبية والاجتماعية والدينية على وجه الخصوص، فكثيرا ما نجده في حقل الديانات بمختلف أنواعها. المقدس ظاهرة روحية وجدت منذ بدأ الإنسان في التفكير والتدبر في أمور الطبيعة وتفسير ظواهرها وما تؤول إليه، لكن تعريفاته تختلف حسب واضعيها نظرا لانتمائه إلى حقول معرفية كثيرة.

ورد مفهوم المقدس في معجم لسان العرب مشتقا من الجذر اللغوي الثلاثي" "قدس": التقديس تنزيه الله عز وجل (...) ويقال: القُدُّوسُ فعُّول من القُدس، وهو الطهارة(...) قال الأزهري: لم يجئ في صفات الله غير القُدّوس، وهو الطاهر المنزه عن العيوب والنقائص،... والتقديس: التطهير والتبريك. وتقدّس أي تطهّر. وفي التنزيل: ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؛ الزجاج: معنى نقدّس لك أي نطهر أنفسنا لك،... والأرض المقدسة: المطهّرة"[1].

يحمل هذا التعريف معاني: الطهارة، التطهير والمبارك، وكل ما هو منزه عن الخطأ والنقائص والعيوب، فمن صفات الله تعالى القدّوس أي المنزه سبحانه عن العيوب والنقائص التي تميز بها البشر. يبدو المقدس عند روجيه كايوا Roger Caillois"المقولة

التي يبنى عليها السلوك الديني تلك التي تمنحه خاصته النوعية وتفرض على المؤمن شعورا مميزا بالاحترام يحصّن إيمانه ضد روح النقد"[2]، ليرتبط المقدس بالجانب الديني وممارساته أو طقوسه التي تؤمن بها جماعة من الناس فيعاملونها معاملة خاصة جديرة بالاحترام فتصبح لها مكانة عظيمة في نفوسهم ويقدرونها، مثل: طقوس الصلاة، الأنبياء، الأعياد والمناسبات الدينية، فلا يسمحون لأي شخص بانتهاكها.

ونجده في بعض الأحيان يشير إلى أن المقدس هو الطاهر حيث جعل الطاهر والنجس اللذان هما من عالم المقدس بمنزلة الخير والشر من العالم الدنيوي[3]، وفي الوقت نفسه يجعل الدنيوي نقيض المقدس لذلك "يتعين حماية المقدس من كل اعتداء دنيوي، من شأن هذا الاعتداء أن يفسد كينونة المقدس ويفقده ميزته النوعية ويجرده دفعة واحدة من قدرته العاتية والخاطفة"[4]، يتعرض المقدس أحيانا للاعتداء والظلم من طرف الدنيوي بما في ذلك الإنسان مما يسيء إلى قداسته وينقص من قيمته ويؤدي به أحيانا إلى الكفر.

يرى "مرسيا إلياد" "Mircia Iliade" في كتابه المقدس والعادي أن "التعريف الأول الذي يمكننا تقديمه عن المقدس هو أنه يعارض العادي"[5]، فكل ما نلاحظ عليه أنه غير عادي ومختلف تماما عن الأشياء والأمور العادية يعد مقدسا شرط أن يعبر عن قوة أو سر عجائبي، ويضيف قائلا: "إنما يعرف الإنسان المقدس لأن المقدس يتجلى"[6]، ويقصد تجلي القداسة لأن من صفات المقدس أن تظهر قداسته إما في قول أو فعل أو صفة أو زمان وربما أشياء ملموسة.

يحمل المقدس معاني الطهر والنقاء والقوة كما لابد له كما يقول مرسيا إلياد أن تظهر حتى تتضح قداسته، فالمسلم يقدس الله ويعبد ويخافه لأن قوة الله عز وجل تجلت للجميع عن طريق خلقه وسائر الأمثلة التي يضربها للناس وباقي المعجزات المنزلة من عنده سبحانه وتعالى. اعتمد الكوني في رواية نزيف الحجر على مقاييس وقضايا كبرى لبناء متنه الروائي من بينها قضية المقدس لذلك سنحاول تحديد تجليات هذا المقدس؟ في أي صورة قدمها لنا؟ وماهي منطلقاته الفكرية والفلسفية؟

ثالثا/ المقدس وأثره على مصير الإنسان:

تطرق الكوني في رواية نزيف الحجر إلى مقدسات مختلفة بدت واضحة، منها الطوطمية التي بنيت عليها الرواية من أولها إلى آخرها والتي أثارت جدلا وصراعا كبيرين بين متنازعين كثر حيث نجد من يدافع عنها من جهة ومن يحاول الاعتداء عليها من جهة أخرى، بالإضافة إلى قضية الصحراء التي لم تكن مجرد مكان جغرافي فقط داخل الرواية إنما لها أبعاد أخرى سنأتي إلى ذكرها.

1. الطوطمية:

عاش العرب قديما قبل الإسلام وفق نظم وعادات وتقاليد مختلفة ومتنوعة، فقد كانوا يؤمنون بأشياء غريبة، عجيبة، ويطبقونها في حياتهم سواء الاجتماعية أو الدينية، ولأنهم عاشوا داخل مجتمعات رعوية قدّسوا حتى الحيوانات والنباتات، حيث آمنوا بالطوطمية التي بدت غريبة لإنسان ما بعد الإسلام.

عرفت الطوطمية في أستراليا وأمريكا وإفريقيا وتعني "كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوتمه، وقد يكون الطوتم حيوانا أو نباتا، وهو يحمي صاحبه ويبعث إليه الأحلام اللذيذة، وصاحبه يحترمه ويقدسه، فإذا كان حيوانا فلا يقدم على قتله، أو نباتا فلا يقطعه ولا يأكله إلا في الأزمنة الشديدة"[7]، فالطوطم هو حيوان مقدسة عند ثلة من الناس يحترمونه ويحبونه ويدافعون عنه لأن مخالفة الأمر يؤدي إلى عواقب وخيمة كالموت، وهذا ما حاول الكوني تجسيده في الرواية من خلال الودان* الذي كان طوطما لأسوف الذي ورثه عن والده.

يعرف "سيغموند فرويد" "Sigmund Freud" الطوطم على أنه "الأب الأول للعشيرة، ومن ثم الروح الحلمية لها، والمعين الذي يرسل لها الوحي، والذي إذا كان خطرا. يعرف أبناءهم ويسوقهم، من أجل ذلك يخضع أبناء الطومطم، لالتزام مقدس رادع ذاتيا، يقضي بأن لا يقتلوا طوطمهم (لايبيدونه) وأن يستغنوا عن لحمه"[8]. بما أن الطوطم هو الأب الحامي الذي يتنبأ بالخطر الذي يحدق بالعشيرة ويدافع عنها في ساحة

القتال، فقد أصبح شيئا مقدسا وجب على صاحبه احترامه والأمر متبادل بين الاثنين، فيحرم على الإنسان أكل لحمه مهما وصل به الحال إلى الجوع.

أ - أسوف ووالده:

علّم الوالد ابنه أسوف كل شيء حتى يستطيع العيش في الصحراء لكنه أبى تعليمه صيد الودان بالرغم من براعته في ذلك، لأنه طوطم والده فقد حدث أن سكنه الودان وحل فيه عندما كان يصطاد في أحد الأيام في جبال آينسيس، بعد أن كاد يسقط في الهاوية وفقد الأمل في النجاة فأنقذه الودان الذي كان سيصطاده وحل فيه. وعندما صوب الأب البندقية نحوه انتحر ومات، ومنذ ذلك اليوم قطع عهدا ونذر نذرا بأن لا يقتل الودان مادام حيا.

كان الوالد يمنع ابنه من اصطياد الودان فقد " تغير منذ أن انتحر الودان المكابر بين يديه. أصبح مهموما واجما كئيبا يكثر من ترديد المواويل الوجدانية الحزينة ويغفل عن مخاطبته عندما يتحدث معه أو يتوجه إليه بسؤال"[9]، لكن مع مرور السنوات اضطر الوالد للخروج في رحلة صيد بعد أن حل بهم جوع كبير وخرج يبحث عن الودان، فبكى كثيرا في الليل وقرأ كل الآيات التي يحفظها من القرآن، وردد تمائم السحرة الزنوج بلغة الهوسا[10]** وعلق بعض تعاويذ العرافين على رقبته وهذا من عادات أهل الصحراء قديما.

فعل ذلك خوفا من أن يحل عليه عقاب روح الجبال إذا اصطاد الودان، لكن بعد أن طال غياب الأب أرسلت الأم أسوف للبحث عن والده حيث وجده في أعلى قمة في الصخور "راقدا على ظهره، وجهه يتجه نحو السماء، ومقلتاه فارغتان، وملامحه زرقاء، يحوم عليه ذباب أزرق، كبير الحجم. لا أثر لنزيف، ولا بقعة دم، باستثناء خدوش في يديه الممدوتين بموازاة جسده. لقد كسر الحيوان المسكون رقبته كما كسر هو يوما رقبة ذلك الودان الذي انتحر"[10]، ارتكب والد أسوف جريمة بحق طوطمه فهو لم يكن عادلا قط، يعتقد روجيه كايواه أن الفرق بين المجتمعات الطوطمية والمجتمعات الملكية يكمن في كون الاحترام متبادلا في الأولى يساوي بين الجميع في الحقوق والواجبات، في حين أنه في الثانية يبذل من طرف واحد"[11].

كان والد أسوف أنانيا لم يحترم طوطمه الذي أنقذه في المرة الأولى إلى أن لقي حتفه وهذا ما يؤكده سيغموند فرويد الذي يرى أن "العلاقات بين الإنسان وطوطمه متبادلة: فالطوطم يحمي الإنسان، والإنسان يظهر احترامه للطوطم بصور شتى، بالامتناع مثلا عن قتله إذا كان حيوانا وبالامتناع عن قطفه، إذا كان نباتا"[12]، بعد مقتل الوالد أصبح أسوف يقدس الودان وحرم على نفسه قتله أو أكله، وأصبح يعاف أكل اللحم.

يمتلك الودان ميزة جذب وسلب عقل الإنسان وهذا ما حدث مع أسوف حين خيّم عليه النسيان حين رؤيته للودان فلحق به إلى أن أخذه إلى الهاوية صوب الصخور القاسية حيث كاد أن يموت لولا سلاح الصبر وإنقاذ الودان له "حينها رأى أباه في عيني الودان الصبور، العظيم رأى عيني الوالد الحزينتين الطيبتين اللتين لم تفهما لماذا يؤذي الإنسان أخاه الإنسان، ففرّ إلى الصحراء واختار أن يموت وحيدا في الجبال على أن يعود إليهم"[13]. وهنا يكمن سر التحول إذ حل الأب في الودان والودان حل في الابن، فثلاثتهم الآن شيء واحد حيث أصبح أسوف جنّا.

أنقذ الودان أسوف بعد خيبة أمل كبيرة لأنه خالف النذر الذي قطعه الوالد، فالمقدس "يبرز كمحظور محفوف بالمخاطر، فكل من تجاسر على لمسه حل به عقاب تلقائي وفوري"[14]، يصبح المقدس خطرا على الشخص الذي يعتدي ويتطاول عليه، وهذا يتضح من خلال ما حدث مع بطل الرواية ووالده فهذا الأخير خالف النذر وانتهك قداسة الودان فانتقم منه وقتله، في حين أن أسوف عندما حاول اصطياد الودان عذبه وسامحه ولو حاول مرة أخرى لكان سيقتله.

أعطى الودان للإنسان عدة فرص للنجاة خاصة في بداية التقائه مع الوالد والابن على عكس الإنسان الذي يطغى عليه النسيان والطمع، فالروائي ربما يمرر رسالة يتساءل فيها عن غياب رحمة ورأفة الإنسان، بينما نجد في المقابل أن الحيوان هو من رق قلبه وسامح وعطف على صاحب العقل والحكمة، وهذا أمر عجيب فالإنسان متغير من حيث طباعه وأخلاقه ومعاملاته. هذا الأمر يدفع القارئ للتساؤل عن السبب الذي يدفع بالإنسان إلى أن يفعل هذا الشر مع طوطمه؟، ولم يتميز بالغدر والخيانة؟ ما الذي

يدفع به إلى تدنيس كل ما يحيط به سواء أ كان عاديا أم مقدسا؟ "والعادي أو غير المقدس يتصف بصفات سلبية بالنسبة إلى المقدس"[15]، فنظرة الودان للإنسان هي نظرة دونية بسبب ما قام به من عنف وتجريح وانتهاك، فاتصف بالخيانة والنسيان رغم وعوده وعهوده هذه العادات السيئة ستؤدي بيه إلى الضياع والفقدان وترى إلى متى سيبقى على هذه الحال؟

ب – قابيل:

وظف الكوني شخصية قابيل لما تحمله من عدة دلالات فالمتلقي عندما يصادف هذا الاسم-قابيل-، يتبادر إلى ذهنه عدة قضايا كبرى، أهمها قضية الصراع بين ابني آدم وأول جريمة عرفها الإنسان والتي بادر بها قابيل فقتل أخاه هابيل، ليشير إلى العنف الصادر من نفس الإنسان الخبيثة الأمارة بالسوء. فكل من الأخوين كان له حرية الاختيار والتحكم في النفس والأفعال وصنع ذاته إما خيرا أم شريرا، حيث اختار هابيل أن يكون خيرا تقيا محسنا إلى أخيه بينما قابيل فقد اختار الشر والجرم، تبعا لقوله عز وجل: "فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفسُهُ قَتْلَ أخيهِ فقَتَلَهُ فأصبَحَ مِنَ الخاسِرينَ"[16]، ترمي الآية إلى أن الفاعل الحقيقي هو الإنسان وحده ولا دخل للشيطان في هذه الجريمة أي إن قابيل فعل ذلك بملىء إرادته دون وسوسة الشيطان، "فالحياة على وجه الأرض دلالة رمزية على تواصل الصراع بين النفس الأمارة بالشر والنفس الخّيرة"[17]، فالإنسان يشبه الشيطان عندما يتجرد من إنسانيته.

يلاحظ أن القاسم المشترك بين قابيل المتخيل وقابيل الحقيقي يكمن في ارتكاب الخطيئة وفعلي العنف والقتل، فقابيل في الرواية اشتهر بحبه لأكل اللحم النيء وكان يحب أكل الودان على وجه الخصوص والعجيب فيه أنه لا يستطيع النوم إذا لم يأكل لحما وكأنه أفيون بالنسبة له، منذ أن كان في بطن أمه وكان بمثابة لعنة على عائلته فقد مات والده وأمه وخالته التي ربته وزوج خالته بسببه.

استحضر الكوني قضية القربان من قصة قابيل الحقيقية ومنحها بعدا آخ يتمثل في علاقة الحيوان بالإنسان والتضحية التي يقدمها الحيوان للإنسان في مقابل أن يعيش أبناؤه في سلام وأمان، حيث قامت الغزالة الأم بالتضحية بنفسها حتى تعيش

ابنتها وباقي أولادها في أخوة مع ابن آدم الذي كاد أن يموت لولا قربانها، "هناك سر آخر في التضحية. القربان سيفتح عهدا بين نسلك وبين ابن آدم. سيحرم عليه دم ابنتك وأبناء ابنتك إلى أبد الأبدين. هذا هو العهد، حصن القربان وميثاق الدم، واللعنة سوف تلاحق من تسوّل له نفسه أن يخون رباط الدم فلا يوجد في الدنيا كلها أقوى من رباط الدم وليس هناك جريمة أبشع من خيانة هذا الرباط"[18]، ظنت الغزالة أن ابن آدم سيحترم رباط الدم ويقدره لكن للأسف ففي أحد الأيام خان قابيل العهد وقام بأكل أخته الغزالة دون أي رحمة أو شفقة، لعل الكوني يسعى من خلال هذا المشهد أن يعلمنا بأن الإنسان أناني بطبعه ولعله كذلك يشير إلى غدر الأخ لأخيه واندثار علاقة القرابة والأخوة خاصة في هذا العصر الذي نعيش فيه.

قدّس قابيل أكل الغزلان وبالأخص الودّان فالملاحظ أنه من أجل الوصول إلى مقدساته وإشباع رغباته(الجوع)، قام بتدنيس وانتهاك مقدس آخر ألا وهو الودان أو أسوف فقابيل عندما سافر إلى الحمادة، كان يبحث عن الودان فأرغم أسوف على البحث معه عن الودان لأنه يعرف كل شيء عن الصحراء فسأله قائلا: "هل تستطيع أن تدلنا على آثار الودان؟ يقولون إنك تعرف أين يعشعش الطير في "مساك صطفت"[19]، زرع قابيل الرعب في نفس أسوف لأنه يسأل عنه بالذات فأسوف سبق له وان تحول إلى ودان لكنه أنكر معرفته للأماكن التي يتواجد فيها، وأخبره بأنه لا يأكل اللحم بل يعافه.

يتصف قابيل بالدهاء والمكر على عكس أسوف الطيب الساذج الخجول لأنه لم يصدق أسوف وظل يتبعه إلى أن اكتشف أنه هو الودان ذاته واحتار كيف استغباه ولم يتفطن إلى الأمر منذ البداية، ثم عاقبه وعلقه و" أمسك به من لحيته وجر على رقبته السكين بحركة خبيرة خبرة من ذبح كل قطعان الغزلان في الحمادة الحمراء"[20]، إنما قربان الظلم والخطيئة الثانية لقابيل. لم يذكر الروائي هابيل في الرواية ربما لأنه ترك الأمر للمتلقي حتى يستفز تفكيره وذهنه، ولعله أشار إليه عن طريق الودان/أسوف والغزالة.

يخبرنا الكوني أن طبيعة الإنسان وواقعه قاسيان تدفعان بيه إلى أن يكون شريرا لكن لا يمكن أن نحكم على الإنسان بأنه شرير، فمؤكد أنه يمكن أن يكون خيرا لكن هذا يتأتى عن طريق التربية والنية الحسنة أثناء إقامة أي علاقة مع الآخرين، كما يجب عليه التدبر والتأمل في الكون.

2. الإنسان وصناعة قداسة المكان:

أ – الصحراء محراب للخلوة:

اعتمد الكوني في أغلب رواياته على الصحراء كفضاء لتدور فيه أغلب الأحداث أقصى الجنوب الليبي، فضاء مليء بالصخور والرمال والكهوف والشمس القاسية، مكان الطوارق فجسد لنا البيئة الصحراوية بطبيعتها وسكانها وعاداتها وما تحمله من معتقدات وأساطير وحكايات متوارثة من الأجداد إلى الآباء، قدّم الكوني "الصحراء" كمكان مقدس خاصة بالنسبة لأهلها مكان يصلح للعزلة والخلوة، فأسوف ووالده فضلا العيش بعيدا عن عالم الإنس لانعدام الثقة والراحة في وجودهم، فقد سمع والده ذات مرة يقول: "أجاور الجن ولا أجاور الناس. أعوذ بالله من شر الناس"[21]، فالإنسان في نظرهما هو صانع العداوة والبغضاء والشر والحسد والبعد عنه فيه راحة.

تحمل الخلوة معاني وأبعاد صوفية كما تعكس جانبا من فطرة الإنسان ورغبته في البقاء وحيدا ليختلي مع نفسه، حيث يجد نوعا من اللذة في تلك العزلة إذ تصبح كمنفذ للهروب من أحيانا من الواقع الأليم والصدمات التي يتعرض لها الإنسان في حياته اليومية، ومعاناته النفسية وهروبه من أخيه الذي أصبح يشكل خطرا عليه أو تكون مصدرا للإبداع لأن كل واحد منا يحتاج لأن يبقى وحده قليلا ويجالس نفسه، وأفكاره لخلق شيء ما واختراعه وربما أفكار لأن عقل الإنسان يحتاج دوما إلى الراحة وإجراء بعض التصفيات الذهنية بغية إزالة الشوائب السلبية منه والتخلص من الفوضى التي لا معنى.

تنتج العزلة كل الأفكار الكبرى نتيجة للتأمل الذي هو وليد العزلة، فأول ما يحتاجه المتصوف في بداية طريقه هي الخلوة حتى يستطيع التأمل والتدبر والتفكر في خلق الله، وقد اختار أسوف ووالده الصحراء كمكان للخلوة ليضفيا هالة من القداسة

عليها، فقد كانت لهم رمزا للأرض الطاهرة، النقية من مدنسات وشرور الإنسان. يرى الكوني أن الصحراء ذات عمق ميثولوجي تحمل زمنا ميثولوجيا، تاريخ ميثولوجي، أحكام ميثولوجية، والإنسان الميثولوجي هو الإنسان الذي أبدع الحضارات روحيا، لذلك كل الديانات جاءت من الصحراء، لأن طبيعتها كعزلة حرية والحرية مبدعة[22]، فالحرية عمق ميثولوجي ووجه آخر للحقيقة، أحدث دخول قابيل- العنصر الدخيل- إلى أرض الصحراء المقدسة خلخلة لنظامها المتعارف عليه ومن هذا المنطلق يمكن القول أنه فعل تدنيسي نظرا للأذى الذي تسبب فيه لأسوف.

ب / الصحراء فضاء للحرية:

لعبت الصحراء دورا في الرواية إذ مثلت رمز الحرية والتحرر من كل قيود الظلم والعبودية فأصبحت المبدأ الذي يسعى وراءه أسوف لتحقيقه، يلاحظ أنه وصل إلى ذروة الحرية في فترة من الفترات لكن سرعان ما تغير الوضع فصارت حريته مزدوجة مرهونة بحرية الودان المسكون، الذي حاول حمايته وعتقه من الموت حين حاول أحد الغرباء- قابيل- سلب حريته وقتله، ظل صامدا رافضا كشف مكان الودان للعدو فهو يرى أن حرية الودان لا تتحقق إلا في الصحراء بين كهوفها وجبالها وصخورها، إن أسوف "محب للحرية ورمز البراءة ومصالحة الإنسان مع الطبيعة فالعودة إلى الطبيعة الأولى هي السبيل الأول للخلاص من براثن الحضارة وجعل الحنين إلى الجنة الأولى حقيقة بحثا عن النقاء وتجسيدا لحرية النفس واستقلالها عن الجسد والمادة"[23]. هناك إشارة إلى علاقة الإنسان بالحيوان، الإنسان الطيب ذو الضمير الحي، والإنسان الشرير المؤذي ربما لأن هناك مرض نفسي يحوّل الإنسان إلى شخص خطير لا يطاق.

يمكن القول كذلك أن النص محمل بحمولة تاريخية ثقافية تتجسد في صورة الاحتلال الإيطالي لليبيا فشخصية قابيل ربما وظفت للدلالة على خطيئة القتل الأولى هذا من جهة والإشارة إلى العدو الإيطالي من جهة أخرى، تبقى نظرة أسوف ووالده إلى الإنسان نظرة دونية فهو شيطان ورث أسوف عن والده حكمة مفادها أن من اختار أن يعيش في الصحراء فعليه أن يتولى أمره بنفسه، ووصّاه قائلا: "أوصيك بالصبر. كيف تستقيم الصحراء بدون صبر؟ من لم يوهب هذه النعمة لن يطيب له المقام في

الصحراء. عليك بالصبر والحيلة فهما سر الصحراء، لا أحد يستطيع أن يتنبأ من أين يمكن أن تأتي النجاة، من السماء أم من الأرض"[24]، يجب التحلي بالصبر لأنه بمثابة تعويذة لإنسان الصحراء الذي يرعى مبدأ نبيل وهو الحرية بنيته الوجودية، والصحراء كأنموذج جمالي هي المكان الوحيد الذي نستطيع أن نزور الموت فيه ونعود لأنها أنموذج المبدأ الميتافيزيقي الأعلى الذي هو الحرية، الحرية ليس بمعناها التقليدي ولكن بمعناها الكانطي، نقيض الطبيعة، ولهذا الصحراء طبيعة وليست طبيعة، مكان وليست مكان أي لا تتوفر على شروط المكان[25]. أي شروط الاستقرار كالماء مثلا لذلك هي ترفض الإنسان والإنسان يرفضها.

ج / الصحراء قبضة للروح:

حملت الصحراء في أغلب مقاطع الرواية معنى الموت الفضاء الخطير، القاسي بسبب الجو الذي تتميز به كالشمس القاسية والتقلبات المناخية التي تحدث فجأة ودون سابق إنذار لتبيد الطبيعة وسكانها، فأخطر ما فيها هو موت الغدر لأن "الإنسان في الصحراء لابد أن يموت بأحد النقيضين: السيل أو العطش"[26]، من الواضح أن الصحراء مثلت لفضاء الموت لأن الموت طارد شخصيات الرواية منذ البداية إلى النهاية، ويلاحظ أن الأم ماتت بسبب السيول فقام جسدها الضعيف برحلة كبيرة بعد وفاتها صوّرها الروائي في أقسى صورة، حيث "أغرقت السماء أودية الصحراء بالسيول التي فاجأتهم، وجرفت العجوز من الكهف ليجد بقاياها في "أبرهوه" بعد ثلاثة أيام"[27]، فقد مات والد أسوف وحيدا في الصحراء كما فضل أن يعيش منعزلا، ومات أسوف وحيدا كذلك، كما لا ننسى موت الغزلان على يد قابيل، أفراد عائلة أسوف ماتوا منعزلين حتى عن بعضهم.

تجمع الرواية بين الخلوة والموت ومخاطر الصحراء فيتساءل القارئ لماذا هذا التناقض؟ أي حرية هذه التي تؤدي بصاحبها إلى الهلاك، لكن لعل الكوني أجابنا عن ذلك فالسبب هو العنف والخطيئة ونفس الإنسان الخبيثة، والرغبة في اكتشاف الذات والكون والتأمل للوصول إلى الحقيقة والتأمل في خلق الله لتتجلى قوة الله وتتضح للإنسان.

تدل كل الكوارث الطبيعة المتمثلة في الدمار والجفاف والسيول على تجلي قوة الله فالإنسان مهما استخدم من ذكاء وحيل فمصيره الموت ويبقى أضعف مخلوق، لكن الإنسان أجناس حسب ما ورد في الرواية منهم الطيب ومنهم الخبيث، لكن بسبب هذا العداء الذي يتميز به الإنسان فضل أسوف ووالده البقاء في الصحراء للبحث عن حريتهم والموت فيها وبقوة الطبيعة أهون من معاشرة الإنس.

د / الصحراء فردوس مفقود:

يوجد في الجنة نعيم لا ينقطع إذ هي مكان لا نظير له على الأرض مكان مثالي مركز للقيم النبيلة والنفوس الطاهرة والنقية، ينعدم فيها الظلم والألم وكل المعاناة التي نعيشها على الأرض، قيل "المفقودة لأنه لم يتم العثور على هذه الجنة الضائعة لا في التاريخ ولا في الجغرافية، ولا حتى بين أي شعب من الشعوب المعروفة منذ وجود الإنسان على سطح الأرض حتى الآن"[28]. يستعين الكثير من الناس بتقنية الخلوة أو العزلة في سبيل استعادة مبدأين مفقودين ألا وهما الحرية والفردوس، في سبيل استعادة البعد المفقود في الوجود لأن الإنسان بطبيعته حالم باحث عن الله، وعن فردوسه المفقود، فالفردوس لو لم يكن مفقودا لما كان فردوسا والسعي وراء هذا المبدأ المفقود يهب الإنسان قيما أخلاقية[29].

يتميز الإنسان بالخطيئة فحتى لو وضع في الجنة لخرج منها مثل ما فعل آدم عليه السلام فاخرج من الجنة فأصبحت مفقودة بالنسبة للإنسان وليصل إليها من جديد عليه أن يتحلى بالتقوى والأخلاق الحسنة ويعمل بأوامر العقيدة الإسلامية، أي أن يحسّن علاقته مع الخالق وأن يزيح عن طريقه كل ما هو تغريب للروح وكل العوائق التي تمنعه من الوصول إلى عالم الماورائيات، فآدم عليه السلام أغواه الشيطان فهو العائق بينه وبين الجنة.

وعد الله تعالى عباده الصالحين بدخول الجنة خاصة الذين يتحلون بالحق والصبر والثبات والأخلاق الفاضلة، خاصة الصبر فالصابرون يوفون أجورهم بغير حساب ولذلك أورد الكوني الصبر كتعويذة وأوصى بها الوالد ابنه أسوف. كانت الصحراء هي الفردوس المفقود في الرواية لأن فيها يعيش الإنسان في راحة واطمئنان

وسعادة عارمة خالية من الخبث والفساد وظلم العباد، وكانت فضاء للحرية لذلك اختار كل من الإنسان (أسوف ووالده العيش فيها) والحيوان (الودان والغزلان)، لكن قابيل كان شيطانا لهذه الجنة فأخرجهما منها.

خاتمة:

توصلت هذه الدراسة في الختام إلى جملة من النتائج لعل أهمها كالآتي:

- وظف الكوني في رواية نزيف الحجر فكرة الطوطمية ليعرب من خلالها عن علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وعلاقته بالحيوان كونهما جزء لا يتجزأ من الطبيعة، ليحيلا بدورهما إلى فكرة أو أسطورة الخطيئة الأولى المتمثلة في فعل القتل التي ارتكبها قابيل فأصبح رمزا للخطيئة على مدى العصور.
- أثار الكوني أسئلة وجودية كبرى في مدونته كالدين والإنسان والحرية.
- وظف الموروث الثقافي لأهل الصحراء كعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم وأضفى عليه أبعادا جمالية، كما حمّل الصحراء بعدا عميقا وميثولوجيا.
- جسد قضايا فكرية وفلسفية وأنثروبولوجية وأضفى عليها بعدا جماليا مشبعا بالميتافيزيقيا.
- وحّد الروائي بين عالمين اثنين: العالم الواقعي والعالم اللاوقعي (المتخيل والأسطوري) لنستنتج معادلة ذات ثنائيات ضدية بين كل من: الإنسان/الحيوان، الطيب/ الشرير، الصالح / الدنيء، الضحية / المجرم، البريء/المذنب).
- ويلاحظ أن خطابه السردي والمتخيل كله مبني على عنصر العجائبي والغريب، سواء في لغته أو في أفكاره، وكل هذه الحمولات تدفع بالقارئ إلى التساؤلات والبحث وتفتح أمامه الباب للقراءات والتأويلات المتعددة.

هوامش:

[1]- ابن منظور، لسان العرب، مادة قدس، المجلد السادس، دار صادر، بيروت، دط، دت، ص:168-169.

[2]- روجيه كايوا، الإنسان والمقدس، تر: سميرة ريشة، مراجعة: جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص:36.

[3]- ينظر: روجيه كايوا، المرجع نفسه، ص:11.

[4]- المرجع نفسه، ص:11.

[5]- مرسيا إلياد، المقدس والعادي، ترجمة: عادل العوا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، دب، ط:2009، ص:51.

[6]- المرجع نفسه، ص: نفسها.

[7]- محمد عبد المعين خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، مطبعة الحنة للتأليف والترجمة والنشر، دط، القاهرة، مصر، 1937، ص:55.

[*] الودان أو المولفون أقدم حيوان في الصحراء الكبرى وهو تيس جبلي انقرض في أوروبا في القرن السابع عشر.

[8]- سيغموند فرويد، الطوطم والتابو، ترجمة: بوعلي ياسين، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، اللاذقية، ط1، 1983، ص:23.

[9]- إبراهيم الكوني، نزيف الحجر، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1992، ص:45.

[**] لغة قبائل الهوسا التي تقطن شمال نيجيريا.

[10]- المصدر نفسه، ص:34.

[11]- روجيه كايواه، الإنسان والمقدس، ص:14.

[12]- سيغموند فرويد، الطوطم والحرام، ترجمة: جورج طرابيشي، paris،petite bibliothèque payot ،1965، ص:135.

[13]- إبراهيم الكوني، نزيف الحجر،ص: 70.

[14]- روجيه كايواه، الإنسان والمقدس، ص:37.

[15]- مرسيا إلياد، المقدس والعادي، ص:39.

[16]- المائدة، الآية: [32]، رواية ورش عن نافع.

[17]-عبد الباقي هنداوي، العنف المؤسس في "التوراة والقرآن الكريم": صراع قابيل وهابيل أنموذجا، مجلة "يتفكرون"، العدد5، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، تونس،خريف 2015،ص:14.

[18]- إبراهيم الكوني، نزيف الحجر، ص:112.

[19]- المصدر نفسه، ص:19.

[20]- المصدر نفسه، ص:146.

[21]- المصدر نفسه، ص:24.

[22]- ينظر: حوار مع الروائي إبراهيم الكوني، حصة بلا قيود، على قناة BBC News عربي، بتاريخ: 2021/04/12، https://www.youtube.com/watch?v=Vz9KMeq0Fq4.

[23]- دحماني حليمة، رمزية الصحراء في روايات إبراهيم الكوني "نزيف الحجر والتبر وعشب الليل"، مجلة الإنسان والمجال، العدد:05، المركز الجامعي نور البشير بالبيض، الجزائر، أفريل، 2017، ص:267.

[24]- إبراهيم الكوني، نزيف الحجر، ص:65.

[25]-ينظر حوار مع إبراهيم الكوني، حصة إضاءات، بتاريخ 2011/11/25، https://www.youtube.com/watch?v=9TyRANuhZh4.

[26]- إبراهيم الكوني، نزيف الحجر، ص:79.

[27]- المصدر نفسه، ص:77.

[28]- دحماني حليمة، رمزية الصحراء في روايات إبراهيم الكوني "نزيف الحجر والتبر وعشب الليل"، 268.

[29]-ينظر: حوار مع الروائي إبراهيم الكوني، حصة حديث العرب، تاريخ: 2015/12/04، https://www.youtube.com/watch?v=AL9jO5cyfpw